تاريخ قلعة العقبة في ضوء الحفريات الجديدة

سوسن الفاخري

اختلف الباحثون في تاريخ قلعة العقبة إذ نسبها معظمهم إلى السلطان المملوكي قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك (١٥٠١-١٥١٧م) وذلك استناداً إلى النص الكتابي المنقوش داخل القلعة (أو في مدخل القلعة) وأرجعها البعض إلى أقدم من ذلك أي إلى فترة الظاهر بيبرس (٦٥٨-٧٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) وللأسباب السابقة قمنا بعمل حفرية في الجزء الشمالي الشرقي من القلعة من الخارج وقد أختير مربع (٢,٥×٣م) في زاوية البرج الدائري الشمالي الشرقي (**الشكل ١**) ولأنه البرج الوحيد الغير منقب عنه، والهدف منه هو الكشف عن عمق الأبراج الخارجية للقلعة خاصة وأن ارتفاع الطمم من الخارج عالي جداً. إضافة إلى معرفة الحقب التاريخية التي طرأت على القلعة وتاريخ بناءها وذلك من خلال دراسة المخلفات الأثرية مثل الفخار والزجاج والعملة وغيرها.

في البداية بدأت مداميك البرج الدائري مستمرة في الظهور مدماك تلو المدماك كذلك استمرت الحجارة بالظهور في السور المجاور. وعلى عمق (١ متر) بدأت المداميك بالاختفاء وبدأت حجارة غرانيتية غير منتظمة بالظهور مختلطة بالطمم حيث ظهرت خلالها طبقة من البلاستر (الجص) استمرت على طول البرج ومن المعتقد أنها أرضية البرج الدائري (**الشكل ٢**). ومن جهة أخرى وفي الوقت الذي اختفت فيه مداميك البرج الدائري استمرت مداميك السور المجاور بالظهور، وبعد متابعة الحفر تحت هذه الأرضية وبعمق ٧٠ سم من الطمم بدأت مداميك من الحجر الكلسي المستخدم في بناء القلعة بالظهور، ومما يلفت النظر هنا وجود مدماكين إلى ثلاث مداميك لم تأخذ الشكل الدائري وإنما الشكل السداسي (**الشكل ٣**) كما هو في البرج الجنوبي الغربي للقلعة. وبعد ذلك بدأنا في النزول أسفل هذه المداميك حيث ظهرت مداميك من نفس نوع الحجر ولكنها ذات شكل دائري وبدأت تلتف لتشكل برجاً دائرياً واستمر معها الجدار الملاصق بالنزول حتى توصلنا إلى أساسات مشتركة بين السور والبرج من الحجر الغرانيتي.

من خلال ما سبق ومن خلال دراسة المخلفات الفخارية نستطيع أن نجزم أن القلعة قد بنيت على ثلاث مراحل أو فترات تاريخية. ولكن السؤال هنا «متى شيدت هذه القلعة؟»

وحتى نجيب على هذا السؤال لا بد من توضيح ما يلي:

أطلق على العقبة قديماً اسم أيله وإيلاناً ولم تعرف باسم العقبة إلا عند المؤرخين العرب في العصور الوسطى.

ومما يذكر أنه في سنة ٥١٠هـ (١١١٦م) اندفع بلدوين الأول بمئتين من فرسانه إلى البحر وانتهى به المقام في أيله فاستولى عليها بسهولة إذ أن الحامية الفاطمية كانت ضعيفة، وأثّر ذلك على اقتصادها وقد ظهر ذلك واضحاً من نوعية الفخار الذي تم العثور عليه في أيلة الإسلامية حيث صنع باليد ومن عجينه خشنة وغير متساوي في الحرق، كذلك بنيت المباني الفاطمية من الطين بدلاً من الحجارة وهذا يوضح الضعف في جسد الحامية الفاطمية فعندما هاجمها بلدوين هربت هذه الحامية بحراً بواسطة المراكب. وتذكر المصادر اللاتينية أن بلدوين بنى في أيله قلعتين برية وبحرية (جزيرة فرعون) وشحنهما بالرجال والعتاد ثم عاد إلى القدس.

المؤرخ اللاتيني فوشيه دي شارتر مؤرخ الحملة الصليبية الأولى لم يذكر شيئاً عن بناء قلعة في أيلة، علماً بأنه ذكر معظم القلاع التي أقيمت في فلسطين والساحل الشامي، وذكر فقط أن بلدوين الأول وصلها سنة ١١١٦م فنظر في أحوال خليج العقبة وميناء أيله ثم عاد إلى القدس عن طريق الشوبك بعد أن أقام في أيله بضعة أيام فقط ولم يذكر شيئاً عن بناء قلعة هناك (Fulcher 1973: 217).

أما بالنسبة لجزيرة فرعون فهي في الأصل رومانية بيزنطية استخدمها المسلمون، وتمثل الوجود الفرنجي في أيله في استيلائهم عليها واستخدامهم لقلعتيها البرية والبحرية وتقع هذه القلعة البحرية في خليج العقبة جنوب طابا وعلى مسافة ٢١ كم إلى الجنوب الغربي من أيله وتبعد ٢٥٠م عن ساحل سيناء. ويلاحظ الباحث لهذه القلعة أهميتها في العصور القديمة والوسيطة ويعتقد أنها كانت ديواناً للمكوس في العصر الروماني والبيزنطي. فالصليبيون عندما استولوا على أيله لم يبنوا فيها شيئاً وإنما جددوا بناء قلعتها (غوانمة ١٩٨٤: ١٢٥-١٢٨).

أصبح الوجود الفرنجي في أيله مصدر إزعاج وتهديد لتجارة البحر الأحمر وموانىء الحجاز وصار لهم أسطول يتدخل في شؤون البحر الأحمر التجارية والاقتصادية، وقد عبّر صلاح الدين عن هذا في رسالة إلى الخليفة العباسي في بغداد جاء فيها: «ومنها قلعة بثغر أيله كان العدو قد بناها في بحر الهند وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحرم، فسبى منه خلقاً وخرق الكفر في ذلك الجانب خرقاً، وكادته القبلة أن يستولى على أهلها ومساجد الله أن يسكنها غير أهلها...» (ابن واصل ج٢: ٢٩٤)، لذا عمل صلاح الدين

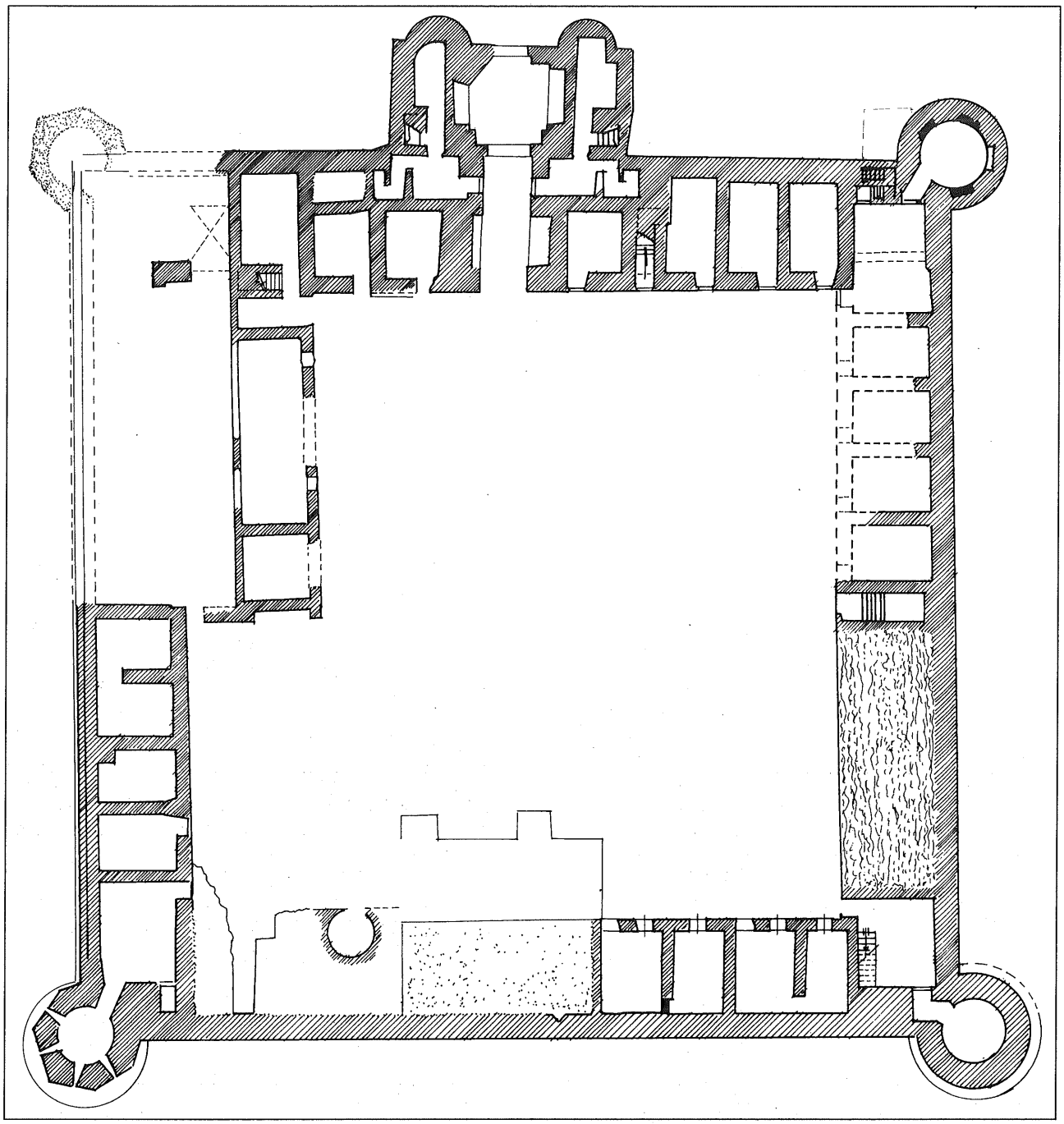

١. مخطط قلعة العقبة واختيار مربع الحفر.

على إنهاء وجودهم فصنع المراكب في الفسطاط ثم نقلها على الجمال إلى أيله فأعاد تركيبها وحاصر قلعتيها البرية والبحرية وحررها عام ١١٧٠م.

مما سبق ومن خلال الحفريات الأثرية التي أجريت تحت أساسات الأبراج، وجد أن المرحلة الأولى للبناء كانت الأبراج أسطوانية الشكل، وعند دراسة المادة الفخارية وجد أنها متشابهة تماماً مع فخار أيله في العصر العباسي والفاطمي ومن هذه الأشكال الأواني والجرار المدهونة بالأزرق الضارب إلى الأخضر وفخار فاطمي مصنوع باليد (**الشكل ٤**).

استناداً إلى المادة الفخارية المكتشفة إضافة إلى ما ورد في المصادر التاريخية يمكن القول بأن المراحل الأولى لبناء القلعة كانت في الفترة العباسية والفاطمية وأن الصليبيين لم يبنوا القلاع وإنما أعادوا بنائها واستخدامها.

على كل حال نستطيع أن نجزم أن القلعة بنيت على ثلاث مراحل (**الشكل ٥**) كذلك استخدمت في كثير من الفترات كخان وسكنت حتى العصر الحديث، وهذا ما سبب التساؤل حول تاريخها، لذلك يجد البعض أن بناؤها يرجع إلى عهد الظاهر بيبرس الذي كان مهتماً ببناء الأبراج وكان عند الانتهاء

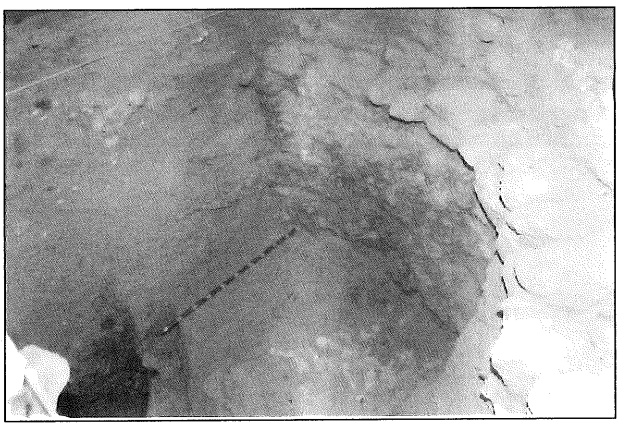

٢. طبقة الجص داخل البرج الدائري.

٣. المداميك سداسية الشكل أسفل البرج الدائري.

من بناء أي برج يصنع رنكة وهو الأسد، وهذا الرنك وجد على البرج الشمالي الشرقي. وهنا يطرح تساؤل عن صحة هذه المقولة، فنجد أنها استندت فقط على صورة الأسدين المتقابلين، إن مثل هذه المقولة تحتاج إلى مزيد من الدراسة وخاصة أن الأسدين حفرا بطريقة بدائية. كما أن وجود الأسدين المتقابلين حول شجرة النخيل نفى فكرة أن يكون رنكاً، ويرى البعض أن هذه الزخرفة كانت شائعة كعنصر زخرفي في الفنون الشرقية بشكل عام وفي الأبنية السلجوقية في

٤. كسر فخارية من أساسات البرج.

أناضوليا بشكل خاص، كما وأنه لوحظ خلال المجسات حول الأبراج أن المرحلة الأخيرة من البرج الشمالي الشرقي والمسمى ببرج الظاهر بيبرس معاصرة للأبراج النصف دائرية التي تحيط بالبوابة الرئيسة وليس من المستبعد أن تكون هذه الزخرفة إضافة من السلطان مراد بن سليم خان الذي جدد بناء القلعة.

أما فيما يتعلق بقانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك والذي أرخ البعض بناء القلعة له استناداً إلى النقش الكتابي داخل القلعة، فمن الواضح أنه قام بتجديد بناء القلعة وإضافة أجزاء وتوسيع أجزاء، ويلاحظ الناظر إلى هذا النقش أن بدايته مختفية بسبب بناء كتف في الزاوية الشمالية الغربية من الممر الأول ومن الممكن أن تكون بداية النقش (جدد) أو (أمر بتجديد) القلعة بدلاً من (أمر ببناء) القلعة (**الشكل ٦**).

وفي فترة مراد بن سليم، وجد نقشين واضحين على البرجين النصف دائريين والمحيطين بالبوابة يدلان على أنه جدد القلعة سنة ٩٩٦هـ (١٥٨٧م) (**الشكل ٧**). وهكذا توالت الفترات التاريخية على القلعة حتى العصر الحديث ولكن بقي أن نقول أن القلعة بحاجة إلى مزيد من الحفريات الداخلية والخارجية حتى نستطيع الإجابة على كافة التساؤلات حول تاريخ بنائها.

سوسن الفاخري
مكتب آثار محافظة العقبة
دائرة الآثار العامة

المراجع

ابن واصل، (جمال الدين محمد بن سالم)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. ٥ أجزاء، القاهرة.

غوانمة، يوسف درويش
١٩٨٤ **أيلة العقبة والبحر الأحمر.** ط١، اربد: دار هشام للنشر والتوزيع.

Fulcher of Charters
1973 *A History of Expedition to Jerusalem 1095-1127.* Translated by F. Rayan. New York.

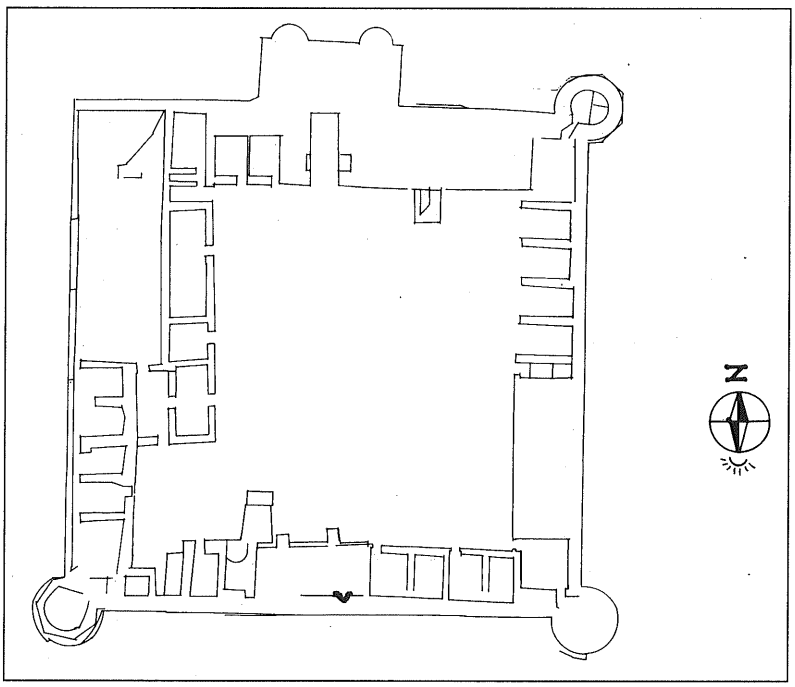

٥: مراحل بناء القلعة.

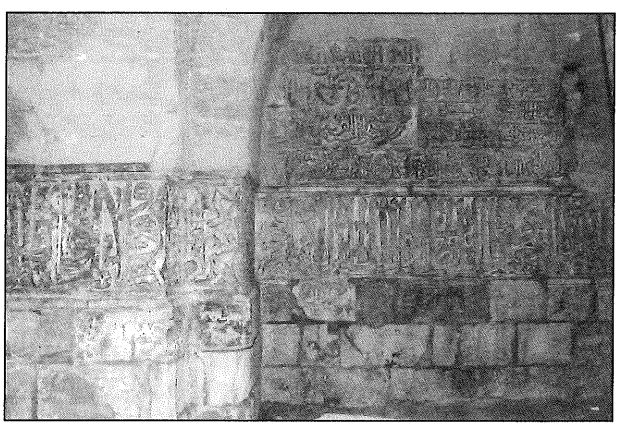

٦. الشريط الكتابي داخل القلعة والمتعلق بقانصوه الغوري.

٧. نقش مراد بن سليم على البرج المحاذي للبوابة.